

486- يوم إبداعى الشخصى السذراع والحزام

قبل النص

حين حضرت صباح اليوم (الأحد) لأختار من إبداعى الخاص ما يصلح لنشرة الغد المخصصة لذلك، فوجنت بأخبار مزجة غزوة، مجزرة غزوة، سلخانة غزوة، طبعاً لا أستطيع أن أصف مشاعرى، وما فائدة المشاعر أصلاً؟ وما فائدة وصفها؟ وما فائدة الكتابة؟ وما فائدة النشرة؟ وما فائدة الحياة؟ وما معنى أى شيء لأى شيء إن كان العجز قد وصل إلى هذا الحد؟، وما فائدة نشرة اليوم بالذات: إبداعى الخاص؟؟!! لماذا؟ وما فائدة الشبكة العربية للعلوم النفسية؟ وما فائدة العلوم النفسية؟

بحثت عن تفاؤلى العنيد الذى وصل إلى حد المرض كما أزعم، نعم هو مرض بقدر بعده عن الواقع، وهو شديد البعد عن الواقع، بحثت عنه فلم أجده، هرب منى، هو دائماً يهرب منى كلما شعرت بما أشعر به الآن من عجز وغيظ وغضب وجزع وجنون، كلما حدث مثل ذلك أصاب بشلل ما، أصمت وأنسجت وكأني مِتْ فعلاً، ثم أنفجر للأمام قبل أن تزهر روحى مباشرة، ألملم نفسى، وأنا أستعد للرحلة القادمة، ولا أجد إلا الكتابة، لا لتفريغ ما بي، وهو لا يفرغ، ولا ينتهى، ولكنها - الكتابة - تذكرنى بمسئوليتى.

يبدو أن هذا نفسه هو ما حدث لى سابقاً ودفعنى أن أكتب القصة التى نشرت منذ أسبوعين بعنوان "نقيرير"، أثناء كتابتى تقريراً عن بحث علمى، كان ساعتها يجرى حول ما ينبهنى إلى احتمال مشاركتى مجرماً مساهماً، كما ذكرت، هذه القصة المقال سبق نشرها فى الأهرام سنة 1982، ومازلت أذكر جزع وألم كل من قرأها آنذاك، لكن ماذا فعلنا بالألم أو فعل بنا الألم؟ وحين أعيد نشرها الأسبوع الماضى، أحدثت نفس الألم عند من عقب عليها وكانها كتبت للتو (قبل مزجة أمس)؟ لكن، مرة أخرى: ما فائدة الألم، وما فائدة الكتابة؟ .... إلخ،

الألم هو الألم، والعجز هو العجز، لكن أياً من ذلك لا ينجح أن يثنينى عن تحمل المسئولية، شخصياً، أولاً، ولو وحدى، قفزت على سطح ذاكرتى صورة أخرى، كتابة أخرى، كتبتها فى مثل نفس الموقف، ربما بمثل نفس الدافع، ربما لمثل نفس الغرض، ونشرت فى الأهرام أيضاً فى 17 أكتوبر 1985.

الآن، لم أعد أستطيع أن أجد عندي ما أعبر به عن موقفى مما بلغنى هذا الصباح إلا أن أعيد نشر تلك القصة، أعيد نشرها لأن شيئاً لم يتغير، إلا بداخلي، أصبحت واعياً أكثر فأكثر، وأنا أقبل التحدى بقدر ما أتحمل مسئولية التفاؤل حتى لو كان مرضاً فعلاً، حتى لو **أصر أن يقول ويعيد:**

"إنه بالرغم من كل هذا، فإننا نحن - الناس - (وليس فقط العرب) هم الذين سوف ينتصرون، حين نتحمل مسئولية تفاؤلنا والدماء تجرى من حولنا، طالما هناك دماء تجرى في عروقنا، لا مفر من مواصلة معركتنا بشراً معاً، اللهم إلا إن تحولت الدماء في عروقنا إلى مياه راكدة آسنة عفنة، وأنا لا أرى أن هذا محتمل، وإن كان يمكن أن يكون هذا هو ما يجرى في عروقهم هم، فهم المنقرضون قبلنا، "هم" ليسوا فقط الإسرائيليون، ولكن كل من لا يثور ضد الجارى لصالحه قبل صالحنا، لصالح الناس، كل من موقعه بطريقته طول الوقت".

\*\*\*\*\*

النص:

### الذراع والحزام

تمتد الذراع الأفعى إلى حيث لم احتسب، تنسحب اليد اللزجة فوق المجرى المخفى في ثنايا السترة، تلتصق الأخرى على قفأى، يتنخم صوت خشن دون توقف حتى أتبين أنها قهقهة تصدر من أمعاء مغمور لم يتقيأ، يبصق على وجه ابنتى النائمة في حجرى قائلاً:

.. كله بثمنه .. واللى عاجبه

الممثل الأكبر يدهن شعره المصبوغ بشحم نتن، يتحدث عن العدل القاتل والرد المलगوم، وصدر تشريع احداث لتقنين النذالة والوعدنة الموجهة، اى والله.

أتقيأ شعرى، أوزان قصائده حجارة من سجيل تلطم وعيى، افتح درج مكثى لأبحث عن نتائج، آخر بحث علمى لم افسر بعد نتائجه، أرقام مرصومة في جداول معقدة، يشغلوننا - طول الوقت - بهذا العبث الدائر حول جزئيات الجزئيات، أعثر مصادفة على عقد زواجى فأخفيه بعيداً خشية تمزيقه، ألعن ميثاق الأمم المتحدة والوصايا العشر، وإعلانات العمرة السياحية.

اخجل من مجرد التفكير، لا أجرؤ أن أتطلع في وجه حفيدى، يستدير - نائماً - يخفى وجهه في رحم وسادة صغيرة، ليست نظيفة، ألعن الانتخابات والصحف وأبراج المساكن والمدن السياحية واسعار الدولار واطمس أحاسيس غافلة لم تطمس بعد خشية أن تشتعل منى لا أعرف إلى أين.

ما عاد يجوز .. ما عاد يجوز..

أتبين غول الغضب يجرى في كل دروب وجودى  
فهو القتل.

فرض كفاية، أظن كفاية، بل فرض عين لا يسقط ابدا، لا يسقطه أن تحارب كل الأجنة في بطون أمهاتها، لا يسقطه أن يتبدل الناس غير الناس، العار يصبح عارا أبشع اذا عبثت به عتمة الذاكرة أو مؤتمرات القمة.

سوف أقبل الدعوة، هذا هو رقم تليفون قريبي الذى كان يعمل بالمخابرات، هو يكرههم أكثر من كراهيته لذئب مسعور يجرى جائعا في روضة أطفال، سوف يدلى على نوع المتفجرات وطريقة التشغيل، لابد أن تكون الزيارة "العلمية" الثالثة أو الرابعة حتى يطمئنوا، زملائى حسنو النية مهدوا الطريق، الأسس النفسية للتفاوض الدولى (!! ) ليكن بحثا علميا يحتاج لمقابلة الصقور والحمام مجتمعين، سيكولوجية العلاقات الخازمة الإثنية (أى كلام: بكاهلشا رونيزيز) - الخزام رقيق السمك تماما، والتحكم من خلال قلم حبر جاف، يتحدث النقاش العلمى، انفجر، بى- فيهم .. معلنا وصيتى، رسالتى

أنتقل عبر الحاجز غير المرئى أشعر إني أخف وزنا حتى اتصور - فرحا - أن الطيران اللولبى الصاعد سوف يدوم، إلا أن ثقلا يدب في أطراف أصابع القدمين، ينسحب للساقين فالجذع، يجذبني الثقل إلى أدنى أهبط - غير مصدق - في رعب ساحق، لماذا؟ ألم افعل ما ينبغى؟ الا يكفى؟

أحاول أن أفيق مرتين بلا جدوى.

لا أعرف السياحة والبركة آسنة بلا قاع، أغوص - رغم زئبقية القوام - في منقوع العار والمرارة (لم تكتب سناء المحيدلى قصة، لم تقرض شعراء، ولا قامت ببحث علمى لمؤتمر يستمى)

لا أجد عذرا انتحله

عنيانا يتوارى خجلا من استمراره حيا.

\*\*\*\*\*

بعد النص: 2008/12/28

أتمطى بعد ربع قرن، فأكتشف أنى مازلت حيا

جدا

الألم هو الألم، والدماء الشريفة مازالت طازجة تؤكد أن الحياة تتجدد

لا أخجل

لا أتوارى

لست عنيانا بعد!

ولن أكون

\*\*\*\*\*

ملحق النص:

(قبل القصة "الذراع والحزام" بثلاث سنوات ونصف-  
الأهرام: 4-8-2002)

معنى آخر للجمال

وسط كل هذا التذبيح، والقتل، والتجويع، والإبادة، والإهانة، والاستهانة، هل يوجد مكان للحديث عن الجمال؟ لابد أن للقبح معان أخرى كما أن للجمال معان أخرى، هل يوجد أقبح من تستمع لهذا السيد المسمى بوش وهو يصرح أى تصريح ولا تشعر بالغيثان. تعلمت من غثيان سارتر كيف يكون القبح مثيرا لمثل هذا الرد المعير عن التقزز، إنك حين تسمع هذا الدبليو بوش وهو يطلب من عرفات أن يبذل جهدا أكبر لمكافحة الإرهاب وقد قطعوا عنه الماء فلم يعد يستطيع أن ينظف نفسه أو يتوضأ، أو وهو يوصى صديقه وحليفه شارون ألا يطرد عرفات حتى لا يمارس الإرهاب من الخارج، (وليس لأى سبب آخر)، وكل تصريحاته كذلك، لا تملك إلا أن تصاب بالغيثان وهو أقبح أنواع القبح. ذلك القبح النشاز المثير للنفور الفاتر اللزج المسخ.

هل يوجد بعد و وسط كل هذا القتل والإهانة والإذلال والتجويع، والخطرة مجال للحديث عن عكس هذا تماما، عن الجمال؟

ما هو الجمال؟ وكيف يجد مكانا وسط كل هذا ؟

لا أعرف ما الذى جعلنى أخاطب وفاء إدريس فى نهاية مقال نشر لى فى موقع آخر(الوفد: 2002/2/6) قائلا "ما أروعك يا وفاء، وأنت تقلبين كل خططهم بكل هذا الجمال"، راجعنى بعض الأصدقاء والقراء عن مدى تناسب هذا الوصف مع صورة وفاء وقد تنائرت أشلاؤها بما يثير آلام وحسرة ذويها وكل من يجيها، لم أجد إجابة جاهزة حتى أننى كدت أراجع نفسى كأن اللفظ قد قفز منى رغما عنى. لكننى حين طالعت بعد ذلك بأسابيع وجه آيات الأخرس وعشت - تقمصا ما أمكن ذلك - خبرتها وهى تودعنا لتلحق بأختها منال وإخوانها بلا حصر، عاد إلى وعيى ذلك الوصف الذى غمرنى وأنا أشير إلى رحيل منال رغم الدم والأشلاء والآلام .

ما الحكاية؟ أى جمال فى هذا الفعل الرائع؟

يمكن أن نتكلم عن البطولة، وعن الشجاعة، وعن التضحية، وعن الإيثار، ولكن أن يوصف هذا الفعل بالجمال هذا هو ما توقفت عنده أحاول تفسيره

دون الدخول في تنظير حول فلسفة الجمال، وصلني من خلال مغامرة القلم هذه أن الجمال ليس مجرد تناسق الأجزاء في كل قادر أن يعيد تناسق وعي المتلقى بما تيسر، لكنه حضور جدي بين وعي إنساني، ووعي إنساني أو إلهي آخر في حالة تصعيد بلا نهاية. الجمال حركة منفرجة ضامة مفتوحة النهاية قادرة على تحريك مواز ليواكبها. الجمال تآلف بطول الزمن الممتد، وبعرض الطيف غير المحدود، كل هذا لا يتحقق بشكله المطلق إلا في حالة من الوجد الصوفي الذي لا يوصف.

هل هذه هي الرسالة التي وصلتني من وفاء وآيات وكل أولادى وأحبابي وأنا أنظر في عيونهم بعد أن رحلت أجسادهم عن مجال حواسنا الأدنى لتتآلف في المطلق غير المتناهي؟ ربما، وربما هذا هو الذي جعل الألم الذي يعتصرني لا يعنى من استعمال تعبير الجمال في وصف رحيل أجسادهم دون اختفاء دورهم.

لحن الاستشهاد هذا هو الذي يملأ الوعي بتأكيد العلاقة الوثيقة بين الحياة والموت، ليسا كضدين، ولكن بتوليد أحدهما للآخر، وهو هو الذي يؤلف بين الفرد وناسه، بين الحدود والمطلق، بين الدنيا والآخرة، هذه العلاقة لا يمكن أن توصف إلا بالجمال، دون أن يجرمنا هذا التناغم من أن نتقطع أما ونجزع فرقا.

إن الذي يقرأ وصف الآخرين من الثقافة الأخرى لهؤلاء الشباب لا بد وأن يشك في سلامة وعيهم، ونقاء ذوقهم، إنهم يتحدثون عن هذا الجمال بأقبح الأوصاف، لم يذهب أحدهم إلى مرآته، ويمسك بأي آلة حادة، ويقربها من عنقه، ثم يسأل نفسه ما هو الدافع الذي يمكن أن يجعلني أغرس هذا النصل في عنقي هذا اللهم إلا أن يكون الشديد القوى الذي لم يعد يطاق؟

الفلستينيون المحتلون المهانون المستعملون المذلون يضحون بجياتهم الواحد تلو الآخر ليس نتيجة للإحباط وإنما هي استراتيجية انتحارية؟ والإسرائيليون وهم يحتلون أرض غيرهم، ويهيئون خلق ربنا، ويبصقون على كل الأعراف، ويمزقون كل القرارات الدولية، هؤلاء الإسرائيليون هم الذي يقومون بهذه المجازر الاضطرارية نتيجة للإحباط، شكرا يا سيد سترو.

لا أحد منهم يفهم معنى الموت الجميل، لأن لا أحد منهم يريد أن يتقمص هذا الوجه الجميل آيات الأخرس، حتى لو عجز فريدمان عن ذلك، فليناد ابنته أو حفيدته في مثل سن آيات، أو أكبر أو أصغر قليلا وليتطلع في وجهها ويتصورها وهي تلف حزام التفجير حول وسطها الرقيق، ويسألها أو يسأل نفسه، ما الذي يجعلها تهدر كل هذا وتحرمه منها، وتحرم نفسها من كل آمالها وحبها وحلمها؟ إستراتيجية العمليات الانتحارية؟ لا يا شيخ!!!! آيات لم تسمع كلمة استراتيجية أصلا يا سيدي

إنه ظلمكم يا سيد فريدمان. واحتقاركم لأي آخر غيركم.